تفسير سورة محمد ﷺ

وتسمى سورة القتال ، وسورة الذين كفروا . وهى تسع وثلاثون آية . وقيل : ثمان وثلاثون . وهى مدنية . قال الماوردى : فى قول الجميع ، إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة ، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكى حزنا عليه. فنزل قوله تعالى : ﴿ **وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك** ﴾ . وقال الثعلبى : إنها مكية ، وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبير وهو غلط من القول ، فالسورة مدنية كما لا يخفى. وقد أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : نزلت سورة القتال بالمدينة . وأخرج النحاس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه قال : نزلت سورة محمد بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا. وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، عن ابن عمر أن النبىّ ﷺ كان يقرأ بهم فى المغرب : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله** ﴾ (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴿١﴾ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** ﴿٢﴾ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ** ﴿٣﴾ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴿٤﴾ **سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ** ﴿٥﴾ **وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** ﴿٦﴾ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴿٧﴾ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴿٨﴾ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴿٩﴾ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ﴿١٠﴾ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ** ﴿١١﴾ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن**

---

(١) الطبرانى (١٣٣٨٠) وفى الصغير ١/ ٤٥ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٢١ : « رواه الطبرانى فى الثلاثة ، ورجاله رجال الصحيح » .

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) ﴾

قوله : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله** ﴾ هم كفار قريش كفروا بالله وصدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو دين الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه ، كذا قال مجاهد والسدّى . وقال الضحاك :معنى ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ :عن بيت الله بمنع قاصديه . وقيل : هم أهل الكتاب، والموصول مبتدأ وخبره ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ أى أبطلها وجعلها ضائعة . قال الضحاك : معنى ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ : أبطل كيدهم ومكرهم بالنبى ﷺ ، وجعل الدائرة عليهم فى كفرهم . وقيل : أبطل ما عملوه فى الكفر مما يسمونه مكارم أخلاق : من صلة الأرحام ، وفكّ الأسارى ، وقرى الأضياف ، وهذه وإن كانت باطلة من أصلها ، لكن المعنى : أنه سبحانه حكم ببطلانها . ولما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين فقال : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد** ﴾ ظاهر هذا العموم فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات ولا يمنع من ذلك خصوص سببها ، فقد قيل : إنها نزلت فى الأنصار . وقيل : فى ناس من قريش . وقيل : فى مؤمنى أهل الكتاب ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وخص سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ بالذكر مع اندراجه تحت مطلق الإيمان المذكور قبله ؛ تنبيها على شرفه وعلوّ مكانه ، وجملة ﴿**وهو الحق من ربهم** ﴾ معترضة بين المبتدأ وهو قوله : ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ وبين خبره وهو قوله : ﴿ **كفر عنهم سيئاتهم** ﴾ ومعنى كونه الحقّ : أنه الناسخ لما قبله ، وقوله : ﴿ **من ربهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، ومعنى ﴿ **كفر عنهم سيئاتهم** ﴾ أى السيئات التى عملوها فيما مضى فإنه غفرها لهم بالإيمان والعمل الصالح ﴿ **وأصلح بالهم** ﴾ أى شأنهم وحالهم . قال مجاهد : شأنهم . وقال قتادة : حالهم . وقيل : أمرهم ، والمعانى متقاربة . قال المبرد : البال : الحال هاهنا. قيل: والمعنى: أنه عصمهم عن المعاصى فى حياتهم، وأرشدهم إلى أعمال الخير، وليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال، ونحو ذلك، وقال النقاش: إن المعنى: أصلح نياتهم، ومنه قول الشاعر:

فإن تقبلى بالودّ أقبل بمثله وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى ما مرّ مما أوعد به الكفار ووعد به المؤمنين ، وهو مبتدأ خبره ما بعده . وقيل : إنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلك بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، فالباطل : الشرك ، والحق : التوحيد والإيمان ، والمعنى : أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه ، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين وإصلاح بالهم بسبب اتباعهم للحق الذى أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان وعمل الطاعات ، ﴿ **كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ أى مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم ، أى أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال فى الغرابة .

قال الزجاج : ﴿ **كذلك يضرب** ﴾: يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وإضلال أعمال الكافرين ، يعنى : أن من كان كافراً أضلّ الله عمله، ومن كان مؤمنا كفر الله سيئاته .

﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ لما بين سبحانه حال الفريقين أمر بجهاد الكفار، والمراد بالذين كفروا : المشركين ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب، وانتصاب ﴿ **ضرب** ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف . قال الزجاج ، أى فاضربوا الرقاب ضرباً ، وخص الرقاب بالذكر ؛ لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها . وقيل : هو منصوب على الإغراء . قال أبو عبيدة : هو كقولهم : يا نفس صبراً . وقيل : التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب . وقيل : إنما خصّ ضرب الرقاب ؛ لأن فى التعبير عنه من الغلظة والشدة ما ليس فى نفس القتل ، وهى حزّ العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن ، وعلوّه وأحسن أعضائه ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم** ﴾ أى بالغتم فى قتلهم وأكثرتم القتل فيهم ، وهذه غاية للأمر بضرب الرقاب ، لا لبيان غاية القتل ، وهو مأخوذ من الشيء الثخين ، أى الغليظ ، وقد مضى تحقيق معناه فى سورة الأنفال ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ الوثاق بالفتح ويجيء بالكسر : اسم الشيء الذى يوثق به كالرباط . قال الجوهرى : وأوثقه فى الوثاق ، أى شده . قال : والوثاق بكسر الواو لغة فيه . قرأ الجمهور : ﴿ **فشدوا** ﴾ بضم الشين ، وقرأ السلمى بكسرها ، وأنما أمرسبحانه بشدّ الوثاق لئلا ينفلتوا ، والمعنى : إذا بالغتم فى قتلهم فأسروهم وأحيطوهم بالوثاق ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ أى فإما أن تمنوا عليهم بعد الأسر منا ، أو تفدوا فداء . والمنّ : الإطلاق بغير عوض ، والفداء : ما يفدى به الأسير نفسه من الأسر ، ولم يذكر القتل هنا اكتفاء بما تقدّم . قرأ الجمهور: ﴿ **فداءً** ﴾ بالمد ، وقرأ ابن كثير : « فدى » بالقصر ، وإنما قدّم المنّ على الفداء ؛ لأنه من مكارم الأخلاق ، ولهذا كانت العرب تفتخر به ، كما قال شاعرهم :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ أوزار الحرب التى لا تقوم إلا بها من السلاح والكراع، أسند الوضع إليها وهو لأهلها على طريق المجاز ، والمعنى : أن المسلمين مخيرون بين تلك الأمور إلى غاية هى أن لا تكون حرب مع الكفار . قال مجاهد : المعنى: حتى لا يكون دين غير دين الإسلام وبه قال الحسن والكلبى ، قال الكسائى: حتى يسلم الخلق . قال الفراء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقيل : المعنى : حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة . وروى عن الحسن وعطاء أنهما قالا : فى الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها ، فإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق .

وقد اختلف العلماء فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ؟ فقيل : إنها منسوخة فى أهل الأوثان ، وأنه لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم ، والناسخ لها قوله: ﴿ فاقتلوا المشركين

حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] وقوله : ﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب فشرّد بهم من خلفهم ﴾ [الأنفال : ٥٧] وقوله : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ [التوبة : ٣٦] وبهذا قال قتادة والضحاك والسدّى وابن جريج وكثير من الكوفيين ، قالوا : والمائدة آخر ما نزل ، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجزية ، وهذا هو المشهور من مذهب أبى حنيفة . وقيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] روى ذلك عن عطاء وغيره ، وقال كثير من العلماء : إن الآية محكمة ، والإمام مخير بين القتل والأسر ، وبعد الأسر مخير بين المنّ والفداء ، وبه قال مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبو عبيد وغيرهم ، وهذا هو الراجح ؛ لأن النبى ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك ، وقال سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف لقوله : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾ [الأنفال: ٦٧] فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره .

﴿ **ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم** ﴾ محل ذلك الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلك . وقيل: فى محل نصب على المفعولية بتقدير فعل ، أى افعلوا ذلك ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره محذوف يدلّ عليه ما تقدّم ، أى ذلك حكم الكفار ، ومعنى ﴿ **لو يشاء الله لانتصر منهم** ﴾ ، أى قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم وإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب ﴿ **ولكن** ﴾ أمركم بحربهم ﴿ **ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ أى ليختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين فى سبيله ، والصابرين على ابتلائه ويجزل ثوابهم ، ويعذب الكفار بأيديهم . ﴿ **والذين قتلوا فى سبيل الله** ﴾ قرأ الجمهور : «قاتلوا» مبنيا للفاعل . وقرأ أبو عمرو وحفص: ﴿**قتلوا**﴾ مبنيا للمفعول ، وقرأ الحسن بالتشديد مبنيا للمفعول أيضا ، وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر وأبو حيوة : « قتلوا » على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف ، والمعنى على القراءة الأولى والرابعة : أن المجاهدين فى سبيل الله ثوابهم غير ضائع ، وعلى القراءة الثانية والثالثة : أن المقتولين فى سبيل الله كذلك لا يضيع الله سبحانه أجرهم. قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد. ثم ذكر سبحانه مالهم عنده من جزيل الثواب فقال: ﴿**سيهديهم**﴾ أى سيهديهم الله سبحانه إلى الرشد فى الدنيا ويعطيهم الثواب فى الآخرة ﴿ **ويصلح بالهم** ﴾ أى حالهم وشأنهم وأمرهم . قال أبو العالية : قد ترد الهداية ، والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطريق المفضية إليها، وقال ابن زياد: يهديهم إلى محاجة منكرونكير ﴿**ويدخلهم الجنة عرّفها لهم**﴾ أى بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، وذلك أنهم إذا دخلوا تفرقوا إلى منازلهم. قال الواحدى: هذا قول عامة المفسرين، وقال الحسن: وصف الله لهم الجنة فى الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها. وقيل: فيه حذف، أى عرفوا طرقها ومساكنها وبيوتها. وقيل: هذا التعريف بدليل يدلهم عليها، وهو الملك الموكل بالعبد يسير بين يديه حتى يدخله منزله، كذا قال مقاتل. وقيل: معنى ﴿**عرفها لهم**﴾: طيبها بأنواع الملاذّ، مأخوذ من العرف، وهو الرائحة.

ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم** ﴾ أى إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار ويفتح لكم ، ومثله قوله : ﴿ ولينصرّن الله من ينصره ﴾ [الحج : ٤٠] قال قطرب :إن تنصروا نبى الله ينصركم ﴿ **ويثبت أقدامكم** ﴾ أى عند القتال وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة فى مواطن الحرب ، وقيل : على الإسلام. وقيل : على الصراط ﴿ **والذين كفروا فتعساً لهم** ﴾ الموصول فى محل رفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف تقديره : فتعسوا بدليل ما بعده ، ودخلت الفاء تشبيها للمبتدأ بالشرط ، وانتصاب ﴿**تعساً**﴾ على المصدر للفعل المقدر خبراً، قال الفراء : مثل سقياً لهم ورعياً، وأصل التعس : الانحطاط والعثار ، قال ابن السكيت : التعس : أن يجر على وجهه ، والنكس : أن يجر على رأسه ، قال : والتعس أيضا : الهلاك ، قال الجوهرى : وأصله الكبّ وهو ضد الانتعاش ، ومنه قول مجمع بن هلال :

تقول وقد أفردتها من حليلها تعست كما أتعستنى يا مجمع (١)

قال المبرّد: أى فمكروها لهم، وقال ابن جريج: بعدا لهم. وقال السدّى: خزياً لهم، وقال ابن زيد: شقاء لهم، وقال الحسن: شتماً لهم، وقال ثعلب: هلاكاً لهم، وقال الضحاك: خيبةً لهم. وقيل: قبحاً لهم، حكاه النقاش. وقال الضحاك: رغماً لهم، وقال ثعلب أيضا: شرّاً لهم، وقال أبو العالية: شقوة لهم، واللام فى: ﴿**لهم**﴾ للبيان كما فى قوله: ﴿هيت لك﴾ [يوسف: ٢٣] وقوله: ﴿**وأضل أعمالهم**﴾ معطوف على ما قبله داخل معه فى خبرية الموصول. والإشارة بقوله: ﴿**ذلك**﴾ إلى ماتقدّم مما ذكره الله من التعس والإضلال، أى الأمر ذلك، أو ذلك الأمر ﴿ **بأنهم كرهوا ما أنزل الله** ﴾ على رسوله من القرآن، أو ما أنزل على رسله من كتبه لاشتمالها على ما فى القرآن من التوحيد والبعث ﴿**فأحبط**﴾ الله ﴿**أعمالهم**﴾ بذلك السبب، والمراد بالأعمال: ما كانوا عملوا من أعمال الخير فى الصورة وإن كانت باطلة من الأصل؛ لأن عمل الكافر لايقبل قبل إسلامه.

ثم خوّف الله سبحانه الكفار وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم فقال : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض** ﴾ أى ألم يسيروا فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا ﴿ **فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ أى آخر أمر الكافرين قبلهم ، فإن آثار العذاب فى ديارهم باقية . ثم بين سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال : ﴿ **دمرّ الله عليهم** ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والتدمير: الإهلاك ، أى أهلكهم واستأصلهم ، يقال : دمّره ودمر عليه بمعنى ، ثم توعد مشركى مكة فقال : ﴿ **وللكافرين أمثالها** ﴾ أى لهؤلاء الكافرين أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة . قال الزجاج وابن جرير : الضمير فى ﴿ **أمثالها** ﴾ يرجع إلى ﴿ **عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ وإنما جمع لأن العواقب متعددة بحسب تعدّد الأمم المعذبة . وقيل : أمثال العقوبة .

(١) الشاعر : مجمع بن هلال بن خالد ، من بنى تيم : شاعر فارس جاهلى ، أغار على بعض بنى مجاشع ، فقتل وأسر وغنم وله فى ذلك شعر ، وهو من المعمرين . الأعلام ٥/ ٢٨٠ .

وقيل: الهلكة. وقيل: التدميرة، والأول أولى لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله. والإشارة بقوله: ﴿**ذلك**﴾ إلى ما ذكر من أن للكافرين أمثالها ﴿**بأن الله مولى الذين آمنوا**﴾ أى بسبب أن الله ناصرهم، ﴿**وأن الكافرين لا مولى لهم**﴾ أى لا ناصر يدفع عنهم. وقرأ ابن مسعود: «ذلك بأن الله وليّ الذين آمنوا» قال قتادة: نزلت يوم أحد. ﴿**إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار**﴾ قد تقدّم تفسير الآية فى غير موضع، وتقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات، والجملة مسوقة لبيان ولاية الله للمؤمنين ﴿**والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام**﴾ أى يتمتعون بمتاع الدنيا وينتفعون به كأنهم أنعام ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم، مناهون عن العاقبة لاهون بما هم فيه ﴿**والنار مثوى لهم**﴾ أى مقام يقيمون به، ومنزل ينزلونه ويستقرّون فيه، والجملة فى محل نصب على الحال أو مستأنفة.

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله** ﴾ قال: هم أهل مكة قريش نزلت فيهم ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ قال: هم أهل المدينة الأنصار ﴿ **وأصلح بالهم** ﴾ قال: أمرهم [١]. وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله: ﴿**أضلّ أعمالهم**﴾ قال: كانت لهم أعمال فاضلة لا يقبل الله مع الكفر عملا.

وأخرج النحاس عنه أيضا فى قوله: ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ قال: فجعل الله النبى والمؤمنين بالخيار فى الأسار، إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضاً فى الآية قال: هذا منسوخ نسختها: ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة: ٥] [٢]. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن قال: أتى الحجاج بأسارى، فدفع إلى ابن عمر رجلا يقتله، فقال ابن عمر، ليس بهذا أمرنا إنما قال الله: ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء** ﴾. وأخرج عبد الرزاق فى المصنف، وابن المنذر وابن مردويه عن ليث قال: قلت لمجاهد: بلغنى أن ابن عباس قال: لا يحلّ قتل الأسارى؛ لأن الله قال: ﴿ **فإما منا بعدوإما فداء** ﴾ فقال مجاهد: لا تعبأ بهذا شيئا أدركت أصحاب رسول الله ﷺ وكلهم ينكر هذا، ويقول هذه منسوخة إنما كانت فى الهدنة التى كانت بين النبى ﷺ وبين المشركين، فأما اليوم فلا، يقول الله: ﴿فاقتلوا [٣] المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة: ٥] ويقول: ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ فإن كان من مشركى العرب لم يقبل شىء منهم إلا الإسلام، فإن لم يسلموا فالقتل، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار، إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا

(١) ابن جرير ٢٦/ ٢٥ وصححه والحاكم ٢/ ٤٥٧ ووافقه الذهبى.
(٢) ابن جرير ٢٦/ ٢٦.
(٣) فى المخطوطة بدون الفاء.

استحيوهم ، وإن شاؤوا فادوهم إذا لم يتحولوا عن دينهم ، فإن أظهروا الإسلام لم يفادو» (١) ، ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الصغير والمرأة والشيخ الفانى (٢) . وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماما مهدياً ، وحكما عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير وتوضع الجزية ، وتضع الحرب أوزارها » (٣) . وأخرج ابن سعد وأحمد والنسائى والبغوى والطبرانى وابن مردويه عن سلمة بن نفيل عن النبى ﷺ من حديث قال : « لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج » (٤) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿وللكافرين أمثالها﴾ قال : لكفار قومك يا محمد مثل ما دمرت به القرى فأهلكوا بالسيف .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾

خوّف سبحانه الكفار بأنه قد أهلك من هو أشد منهم فقال : ﴿ **وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم** ﴾ قد قدّمنا أن « كأين » مركبة من الكاف وأىّ ، وأنها بمعنى كم الخبرية ، أى وكم من قرية ، وأنشد الأخفش قول لبيد (٥) :

(١) عبد الرزاق فى الجهاد (٩٤٠٤) .

(٢) ورد فى معناه عن النبى ﷺ الحديث الذى رواه أبو داود عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخاً فانيا ، ولا طفلا ، ولاصغيرا ، ولا امرأة، ولا تَغُلُّوا . . . . » أبو داود فى الجهاد (٢٦١٤) .

(٣) الحديث رواه بألفاظ مختلفة : أحمد ٢/ ٢٤٠ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٤٨) وفى البيوع (٢٢٢٢) وفى المظالم (٢٤٧٦) ومسلم فى الإيمان (١٥٥/ ٢٤٢) وأبو داود فى الملاحم (٤٣٢٤) والترمذى فى الفتن (٢٢٣٣) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٧٨) والبيهقى فى الغصب ٦/ ١٠١ .

(٤) ابن سعد ٧ / ٤٢٧ ، ٨٢٤ وأحمد ٤ / ١٠٤ والنسائى فى الكبرى فى السير كما فى تحفة الأشراف للمزى ٦٣/٤٥ والطبرانى (٦٣٦٠).

(٥) فى المطبوعة : « الوليد » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وكأين رأينا من ملوك وسوقة ومفتاح قيد للأسير المكبل

ومعنى الآية : وكم من قرية هى أشد قوة من أهل قريتك التى أخرجوك منها أهلكناهم ﴿**فلا ناصر لهم**﴾ فبالأولى من هو أضعف منهم ، وهم قريش الذين هم أهل قرية النبى ﷺ وهى مكة ، فالكلام على حذف المضاف كما فى قوله : ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف : ٨٢] قال مقاتل : أى أهلكناهم بالعذاب حين كذبوا رسولهم ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمن وحال الكافر فقال : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، وهو مبتدأ ، والخبر ﴿ **كمن زين له سوء عمله** ﴾ وأفرد فى هذا باعتبار « لفظ » من ، وجمع فى قوله : ﴿ **واتبعوا أهواءهم** ﴾ باعتبار معناها ، والمعنى : أنه لا يستوى من كان على يقين من ربه، ولا يكون كمن زين له سوء عمله ، وهو عبادة الأوثان والإشراك بالله والعمل بمعاصى الله ، واتبعوا أهواءهم فى عبادتها ، وانهمكوا فى أنواع الضلالات بلا شبهة توجب الشك فضلا عن حجة نيرة ، ثم لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال بين الفرق فى مرجعهما ومآلهما فقال : ﴿**مثل الجنة التى وعد المتقون** ﴾ والجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة وبيان ما فيها ، ومعنى ﴿ **مثل الجنة** ﴾ : وصفها العجيب الشأن ، وهو مبتدأ وخبره محذوف ، قال النضر بن شميل :تقديره :ما يسمعون . وقدّره سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، قال : والمثل هو الوصف ومعناه : وصف الجنة ، وجملة :﴿ **فيها أنهار من ماء غير آسن**﴾ إلخ مفسرة للمثل . وقيل : إن ﴿ **مثل** ﴾ زائدة . وقيل : إن ﴿ **مثل الجنة** ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ **فيها أنهار** ﴾ . وقيل :خبره ﴿ **كمن هو خالد** ﴾ ، والآسن : المتغير ، يقال : أسن الماء يأسن أسونا : إذا تغيرت رائحته ، ومثله الآجن ، ومنه قول زهير :

قد أترك القرن مصفراً أنامله يميد فى الرمح ميد المالح الأسن

قرأ الجمهور : ﴿**آسن**﴾ بالمدّ ، وقرأ حميد وابن كثير بالقصر ، وهما لغتان كحاذر وحذر. وقال الأخفش : إن الممدود يراد به الاستقبال ، والمقصور يراد به الحال ، ﴿ **وأنهار من لبن لم يتغير طعمه** ﴾ أى لم يحمض كما تغير ألبان الدنيا ؛ لأنها لم تخرج من ضروع الإبل والغنم والبقر ﴿ **وأنهار من خمر لذة للشاربين** ﴾ أى لذيذة لهم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون ، يقال: شراب لذ ولذيذ وفيه لذة بمعنى ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ [الصافات : ٤٦] قرأ الجمهور : ﴿ **لذة** ﴾ بالجر صفة لـ ﴿ **خمر** ﴾ ، وقرئ بالنصب على أنه مصدر ، أو مفعول له ، وقرئ بالرفع صفة لـ ﴿ **أنهار** ﴾ ﴿ **وأنهار من عسل مصفى** ﴾ أى مصفى مما يخالطه من الشمع والقذى والعكر والكدر ﴿ **ولهم فيها من كل الثمرات** ﴾ أى لأهل الجنة فى الجنة مع ما ذكر من الأشربة من كل الثمرات ، أى من كل صنف من أصنافها ، و «من» زائدة للتوكيد ﴿**ومغفرة من ربهم**﴾ لذنوبهم، وتنكير مغفرة للتعظيم، أى ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم ﴿**كمن هو خالد فى النار**﴾ هو خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: أم من هو فى نعيم الجنة على هذه الصفة خالداً فيها كمن هو خالد فى النار، أو خبر لقوله: ﴿ **مثل الجنة** ﴾

كما تقدّم . ورجح الأول الفراء فقال : أراد أمن كان فى هذا النعيم كمن هو خالد فى النار؟ قال الزجاج : أى أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء ، كم زين له سوء عمله وهو خالد فى النار ؟ فقوله : « كمن » بدل من قوله : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله** ﴾ وقال ابن كيسان : ليس مثل الجنة التى فيها الثمار والأنهار كمثل النار التى فيها الحميم والزقوم ، وليس مثل أهل الجنة فى النعيم كمثل أهل النار فى العذاب الأليم ، وقوله : ﴿**وسقوا ماء حميما** ﴾ عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية ، لكنه راعى فى الأول لفظ « من » ، وفى الثانية معناها . والحميم : الماء الحار الشديد الغليان ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم ، وهى معنى قوله : ﴿ **فقطع أمعاءهم** ﴾ لفرط حرارته ، والأمعاء جمع معى، وهى : ما فى البطون من الحوايا .

﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ أى من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام من يستمع إليك وهم المنافقون ، أفرد الضمير باعتبار لفظ «من» ، وجمع فى قوله : ﴿ **حتى إذا خرجوا من عندك** ﴾ باعتبار معناها، والمعنى : أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله ﷺ ومواطن خطبه التى يمليها على المسلمين حتى إذا خرجوا من عنده ﴿**قالوا للذين أوتوا العلم**﴾ وهم علماء الصحابة. وقيل :عبد الله بن عباس . وقيل : عبد الله بن مسعود . وقيل: أبو الدرداء، والأول أولى، أى سألوا أهل العلم فقالوا لهم : ﴿ **ماذا قال آنفا** ﴾ أى ماذا قال النبى الساعة على طريقة الاستهزاء، والمعنى: أنا لم نلتفت إلى قوله، و﴿**آنفا**﴾ يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات، ومنه: أمر آنف، أى مستأنف، وروضة أنف، أى لم يرعها أحد، وانتصابه على الظرفية، أى وقتا مؤتنفا، أو حال من الضمير فى «قال». قال الزجاج: هو من استأنفت الشىء، إذا ابتدأته، وأصله مأخوذ من أنف الشىء لما تقدم منه، مستعار من الجارحة، ومنه قول الشاعر:

ويحرم سرّ جارتهم عليهم ويأكل جارهم أنف القصاع [1]

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المذكورين من المنافقين ﴿ **الذين طبع الله على قلوبهم** ﴾ فلم يؤمنوا ولا توجهت قلوبهم إلى شىء من الخير ﴿ **واتبعوا أهواءهم** ﴾ فى الكفر والعناد . ثم ذكر حال أضدادهم فقال : ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ أى والذين اهتدوا إلى طريق الخير ، فآمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به زادهم هدى بالتوفيق . وقيل : زادهم النبى ﷺ . وقيل : زادهم القرآن . وقال الفراء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى . وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى ، وعلى كل تقدير فالمراد أنه زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة فى الدين ، ﴿**وآتاهم تقواهم** ﴾ أى ألهمهم إياها وأعانهم عليها . والتقوى قال الربيع : هى الخشية ، وقال السدّى : هى ثواب الآخرة ، وقال مقاتل : هى التوفيق للعمل الذى يرضاه . وقيل : العمل بالناسخ وترك المنسوخ . وقيل : ترك الرخص والأخذ بالعزائم ﴿ **فهل ينظرون إلا الساعة** ﴾ أى القيامة

(١) البيت للحطيئة .

﴿أن تأتيهم بغتة﴾ أى فجأة ، وفى هذا وعيد للكفار شديد ، وقوله : ﴿ أن تأتيهم بغتة ﴾ بدل من ﴿ الساعة ﴾ بدل اشتمال ، وقرأ أبو جعفر الرواسى : « إن تأتهم » بإن الشرطية ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ أى أماراتها وعلاماتها وكانوا قد قرؤوا فى كتبهم أن النبىّ ﷺ آخر الأنبياء ، فبعثته من أشراطها ، قاله الحسن والضحاك . والأشراط جمع شرط بسكون الراء وفتحها . وقيل : المراد بأشراطها هنا : أسبابها التى هى دون معظمها . وقيل : أراد بعلامات الساعة : انشقاق القمر والدخان ، كذا قال الحسن . وقال الكلبى : كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللئام ، ومنه قول أبى زيد الأسود :

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا فقد جعلت أشراط أولـه تبدو

﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ ﴿ ذكراهم ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ فأنى ﴾ لهم ، أى أنى لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة كقوله: ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ [الفجر : ٢٣] و﴿ إذا جاءتهم ﴾ اعتراض بين المبتدأ والخبر. ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ أى إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة ، ومدار الشرّ هو الشرك والعمل بمعاصى الله فاعلم أنه لا إله غيره ولا ربّ سواه ، والمعنى : اثبت على ذلك واستمر عليه ؛ لأنه ﷺ قد كان عالما بأنه لا إله إلا الله قبل هذا . وقيل : ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا. وقيل: المعنى: فاذكر أنه لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم ﴿ واستغفر لذنبك﴾ أى استغفر الله أن يقع منك ذنب ، أو استغفر الله ليعصمك ، أواستغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى . وقيل : الخطاب له ، والمراد الأمة ، ويأبى هذا قوله : ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ فإن المراد به : استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم ﴿ والله يعلم متقلبكم﴾ فى أعمالكم ﴿ ومثواكم ﴾ فى الدار الآخرة. وقيل : متقلبكم فى أعمالكم نهاراً ، ومثواكم فى ليلكم نياما . وقيل : متقلبكم فى أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم فى الأرض ، أى مقامكم فيها ، قال ابن كيسان : متقلبكم من ظهر إلى بطن فى الدنيا ، ومثواكم فى القبور .

وقد أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس؛ أن النبى ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : « أنت أحبّ بلاد الله إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لم أخرج ، فأعتى الأعداء من عتا على الله فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول الجاهلية » فأنزل الله: ﴿وكأين من قرية ﴾ الآية [1] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس﴿ أنهار من ماء غير آسن ﴾ قال : متغير. وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن معاوية بن حيدة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فى الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر

(١) أبو يعلى (٢٦٦٢) وابن جرير ٢٦/ ٣١ وأورده ابن كثير ٦/ ٣١٤ ولم يعلق عليه .

العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها» (١) . وأخرج الحارث بن أبى أسامة فى مسنده ، والبيهقى عن كعب قال : نهر النيل نهر العسل فى الجنة ، ونهر دجلة نهر اللبن فى الجنة ، ونهر الفرات نهر الخمر فى الجنة ، ونهر سيحان نهر الماء فى الجنة (٢) .

وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: ﴿**حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا**﴾ قال :كنت فيمن يُسأل (٣) . وأخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه فى الآية قال : أنا منهم . وفى هذا منقبة لابن عباس جليلة؛ لأنه كان إذ ذاك صبيا غير بالغ، فإن النبى ﷺ مات وهو فى سنّ البلوغ، فسؤال الناس له عن معانى القرآن فى حياة النبى ﷺ ، ووصف الله سبحانه للمسؤولين بأنهم الذين أوتوا العلم، وهو منهم من أعظم الأدلة على سعة علمه، ومزيد فقهه فى كتاب الله وسنة رسوله، مع كون أترابه وأهل سنه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان. وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس، ماذا قال آنفا ؟ فيقول: كذا وكذا. وكان ابن عباس أصغر القوم، فأنزل الله الآية، فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم. وأخرج ابن أبى شيبة وابن عساكر عن ابن بريدة فى الآية قال: هو عبد الله بن مسعود(٤) . وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: هو عبد الله بن مسعود. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾ قال: لما أنزل القرآن آمنوا به، فكان هدى، فلما تبين الناسخ من المنسوخ زادهم هدى.

وأخرج ابن المنذر عنه ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ قال : أوّل الساعات ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالوسطى والسبابة (٥) . ومثله عند البخارى من حديث سهل بن سعد (٦) ، وفى الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشراط الساعة وبيان ما قد وقع منها وما لم يكن قد وقع وهى تأتى فى مصنف مستقل فلا نطيل بذكرها . وأخرج الطبرانى وابن مردويه والديلمى عن عبد الله ابن عمر (٧) عن النبى ﷺ قال : «أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الاستغفار»

---

(١) أحمد ٥/ ٥ والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٧١) وقال : « حسن صحيح » .

(٢) الخطيب فى تاريخ بغداد ١/ ٥٥ وابن حجر فى المطالب العالية (٤٦٨٩) وقال البوصيرى : « رواه الحارث مرسلا ، ورواته ثقات » .

(٣) ابن جرير ٢٦/ ٣٢ و صححه الحاكم ٢/ ٤٥٧ ووافقه الذهبى .

(٤) ابن أبى شيبة (١٢٢٨٩) .

(٥) البخارى فى الرقاق (٦٥٠٤) ومسلم فى الفتن (٢٩٥٠/ ١٣٢ ، ١٣٥) والترمذى فى الفتن (٢٢١٤) والدارمى فى الرقاق ٢/ ٣١٣.

(٦) البخارى فى التفسير (٤٩٣٦) وفى الطلاق (٥٣٠١) وفى الرقاق (٦٥٠٣) .

(٧) فى المخطوطة : « عبد الله بن عمرو » ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج .

ثم قرأ : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ (١) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « إنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة »(٢) . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن سرجس قال : أتيت النبى ﷺ ، فأكلت معه من طعام ، فقلت : غفر الله لك يا رسول الله ، قال : « ولك » ، فقيل: أنستغفر لك يا رسول الله ﷺ ؟ قال : « نعم ولكم » ، وقرأ: ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾(٣) . وقد وردت أحاديث فى استغفاره ﷺ لنفسه ولأمته وترغيبه فى الاستغفار . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **والله يعلم متقلبكم** ﴾ فى الدنيا ﴿ **ومثواكم** ﴾ فى الآخرة .

﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)** ﴾

سأل المؤمنون ربهم عزّ وجل أن ينزل على رسوله ﷺ سورة يأمرهم فيها بقتال الكفار حرصاً منهم على الجهاد ، ونيل ما أعدّ الله للمجاهدين من جزيل الثواب ، فحكى الله عنهم

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٨٧ : «رواه الطبرانى، وفيه الإفريقى وغيره من الضعفاء»، والديلمى (١٤١٢).
(٢) الترمذى فى التفسير (٣٢٥٩) وقال : « حسن صحيح » والبيهقى فى الشعب (٦٢٩) .
(٣) أحمد ٥/ ٨٢ ومسلم فى الفضائل (٢٣٤٦/ ١١٢) وعزاه المزى إلى الترمذى فى الشمائل (٢ / ٨) ، والنسائى فى التفسير (٥١٦) وابن جرير ٢٧/ ٤ .

ذلك بقوله : ﴿**ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة**﴾ أى هلا نزلت ﴿**فإذا أنزلت سورة محكمة**﴾ أى غير منسوخة ﴿ **وذكر فيها القتال** ﴾ أى فرض الجهاد . قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة ، وهى أشدّ القرآن على المنافقين ، وفى قراءة ابن مسعود : «فإذا أنزلت سورة محدثة» أى محدثة النزول . قرأ الجمهور: ﴿ **فإذا أنزلت** ﴾ و﴿ **ذكر** ﴾ على بناء الفعلين للمفعول ، وقرأ زيد بن علىّ وابن عمير : « نزلت » و« ذكر» على بناء الفعلين للفاعل ونصب القتال ﴿ **رأيت الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ أى شك ، وهم المنافقون ﴿ **ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت** ﴾ أى ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجبنهم عن القتال وميلهم إلى الكفار . قال ابن قتيبة والزجاج : يريد : أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم ، وينظرون إليك نظرا شديدا كما ينظر الشاخص بصره عند الموت ﴿ **فأولى لهم** ﴾ قال الجوهرى : وقولهم : « أولى » لك تهديد ووعيد ، وكذا قال مقاتل والكلبى وقتادة . قال الأصمعى : معنى قولهم فى التهديد : أولى لك ، أى وليك وقاربك ما تكره ، وأنشد قول الشاعر :

فعادى بين هاذيتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل فى أولى أحسن مما قاله الأصمعى ، وقال المبرد: يقال لمن همّ بالغضب ثم أفلت : أولى لك، أى قاربت الغضب ، وقال الجرجانى : هو مأخوذ من الويل ، أى فويل لهم ، وكذا قال فى الكشاف [1] . قال قتادة أيضا : كأنه قال : العقاب أولى لهم . وقوله : ﴿ **طاعة وقول معروف** ﴾ كلام مستأنف ، أى أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خير لكم . قال الخليل وسيبويه :إن التقدير : طاعة وقول معروف أحسن وأمثل لكم من غيرهما . وقيل : إن ﴿ **طاعة** ﴾ خبر ﴿ **أولى** ﴾. وقيل :إن ﴿ **طاعة** ﴾ صفة لـ﴿**سورة**﴾. وقيل : إن « لهم » خبر مقدّم و﴿ طاعة ﴾ مبتدأ مؤخر، والأول أولى ﴿ **فإذا عزم الأمر** ﴾ عزم الأمر : جدّ الأمر ، أى جدّ القتال ووجب وفرض ، وأسند العزم إلى الأمر وهو لأصحابه مجازا ، وجواب « إذا » قيل هو :﴿ **فلو صدقوا الله** ﴾ فى إظهار الإيمان والطاعة ﴿ **لكان خيرا لهم**﴾ من المعصية والمخالفة . ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ هذا خطاب للذين فى قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتقريع. قال الكلبى : أى فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فى الأرض بالظلم ، وقال كعب : ﴿ **أن تفسدوا فى الأرض** ﴾ أى يقتل بعضكم بعضا . وقال قتادة : إن توليتم عن طاعةكتاب الله عز وجل أن تفسدوا فى الأرض بسفك الدماء وتقطعوا أرحامكم . وقال ابن جريج : إن توليتم عن الطاعة . وقيل : أعرضتم عن القتال وفارقتم أحكامه . قرأ الجمهور : ﴿**توليتم**﴾ مبنيا للفاعل ، وقرأ على بن أبى طالب بضم التاء والواو وكسر اللام مبنيا للمفعول ،

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٢٤ .

وبها قرأ ابن أبى إسحاق وورش عن يعقوب ، ومعناها : فهل عسيتم إن ولى عليكم ولاة جائرين أن تخرجوا عليهم فى الفتنة وتحاربوهم وتقطعوا أرحامكم بالبغى والظلم والقتل ؟، وقرأ الجمهور: ﴿ **وتقطعوا** ﴾ بالتشديد على التكثير ، وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه وسلام وعيسى ويعقوب بالتخفيف من القطع ، يقال : عسيت أن أفعل كذا ، وعسيت بالفتح والكسر لغتان ، ذكره الجوهرى وغيره ، وخبر ﴿**عسيتم**﴾ هو ﴿ **أن تفسدوا** ﴾ والجملة الشرطية بينهما اعتراض .

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المخاطبين بما تقدّم وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **الذين لعنهم الله**﴾ ، أى أبعدهم من رحمته وطردهم عنها ﴿**فأصمهم**﴾ عن استماع الحق ﴿**وأعمى أبصارهم**﴾ عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد والبعث وحقية سائر ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾ للإنكار ، والمعنى : أفلا يتفهمونه فيعملون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة التى تكفى من له فهم وعقل وتزجره عن الكفر بالله والإشراك به والعمل بمعاصيه ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾ أم هى المنقطعة، أى بل أعلى قلوب أقفالها؟ فهم لا يفهمون ولا يعقلون ؟ . قال مقاتل :يعنى : الطبع على القلوب والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق ، وإضافة الأقفال إلى القلوب ؛ للتنبيه على أن المراد بها : ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب ، ومعنى الآية : أنه لا يدخل فى قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر والشرك ؛ لأن الله سبحانه قد طبع عليها، والمراد بهذه القلوب : قلوب هؤلاء المخاطبين . قرأ الجمهور : ﴿ **أقفالها** ﴾ بالجمع ، وقرئ : «إقفالها » بكسر الهمزة على أنه مصدر كالإقبال . ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم** ﴾ أى رجعوا كفارا كما كانوا . قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبى ﷺ بعد ما عرفوا نعته عندهم، وبه قال ابن جرير، وقال الضحاك والسدّى : هم المنافقون قعدوا عن القتال ، وهذا أولى ؛ لأن السياق فى المنافقين: ﴿**من بعد ما تبين لهم الهدى**﴾ بما جاءهم به رسول الله ﷺ من المعجزات الظاهرة والدلائل الواضحة ﴿ **الشيطان سوّل لهم**﴾ أى زين لهم خطاياهم وسهل لهم الوقوع فيها، وهذه الجملة خبر «إن»، ومعنى ﴿ **وأملى لهم** ﴾: أن الشيطان مد لهم فى الأمل ووعدهم طول العمر. وقيل: إن الذى أملى لهم هو الله عز وجل على معنى أنه لم يعاجلهم بالعقوبة. قرأ الجمهور: ﴿**أملى**﴾ مبنيا للفاعل ، وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة على البناء للمفعول. قيل: وعلى هذه القراءة يكون الفاعل هو الله أو الشيطان كالقراءة الأولى، وقد اختار القول بأن الفاعل الله الفرّاء والمفضل، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدّم ذكره قريبا.

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من ارتدادهم ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله** ﴾ أى بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدّوا على أدبارهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله ، وهم المشركون ﴿ **سنطيعكم فى بعض الأمر** ﴾ وهذا البعض هو عداوة رسول الله ﷺ ومخالفة ما جاء به . وقيل : المعنى : إن المنافقين قالوا لليهود :

سنطيعكم فى بعض الأمر . وقيل : إن القائلين اليهود ، والذين كرهوا ما أنزل الله من المنافقين. وقيل : إن الإشـارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الإملاء . وقيل : إلى التسويل ، والأول أولىٰ ، ويؤيد كون القائلين : المنافقين ، والكارهين : اليهود قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ [الحشر : ١١] . ولما كان قولهم المذكور للذين كرهوا ما أنزل الله بطريقة السر بينهم قال الله سبحانه : ﴿ **والله يعلم أسرارهم** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة جمع سرّ ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ الكوفيون وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم وابن وثاب والأعمش بكسر الهمزة على المصدر ، أى إخفاءهم . ﴿ **فكيف إذا توفتهم الملائكة** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، و﴿ **كيف** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر مقدّم ، والتقدير : فكيف علمه بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة ، أو فى محل نصب بفعل محذوف، أى فكيف يصنعون؟، أو خبر لكان مقدّرة ، أى فكيف يكونون ؟، والظرف معمول للمقدّر ، قرأ الجمهور : ﴿ **توفتهم** ﴾ وقرأ الأعمش: « توفاهم » ، وجملة : ﴿ **يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **توفتهم** ﴾ أو من مفعوله ، أى ضاربين وجوههم وأدبارهم ، وفى الكلام تخويف وتشديد ، والمعنى : أنه إذا تأخر عنهم العذاب فسيكون حالهم هذا ، وهو تصوير لتوفيهم على أقبح حال وأشنعه ، وقيل : ذلك عند القتال نصرة من الملائكة لرسول الله ﷺ ، وقيل : ذلك يوم القيامة ، والأول أولى .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى التوفى المذكور على الصفة المذكورة ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **بأنهم اتبعوا ما أسخط الله** ﴾ ، أى بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصى . وقيل: كتمانهم ما فى التوراة من نعت نبينا ﷺ ، والأول أولى لما فى الصيغة من العموم ﴿ **وكرهوا رضوانه** ﴾ أى كرهوا ما يرضاه الله من الإيمان والتوحيد والطاعة ﴿ **فأحبط** ﴾ الله ﴿ **أعمالهم** ﴾ بهذا السبب ، والمراد بأعمالهم : الأعمال التى صورتها صورة الطاعة ، وإلا فلا عمل لكافر، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردّة . ﴿ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ يعنى : المنافقين المذكورين سابقا، و« أم » هى المنقطعة ، أى بل أحسب المنافقون ﴿ **أن لن يخرج الله أضغانهم** ﴾ الإخراج بمعنى : الإظهار ، والأضغان جمع ضغن ، وهو :ما يضمر من المكروه . واختلف فى معناه ، فقيل :هو الغشّ . وقيل : الحسد . وقيل : الحقد . قال الجوهرى : الضغن والضغينة: الحقد ، وقال قطرب : هو فى الآية العداوة ، و« أن » هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدّر .﴿**ولو نشاء لأريناكهم** ﴾ أى لأعلمناكهم وعرفناكهم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية، تقول العرب : سأريك ما أصنع ، أى سأعلمك ﴿ **فلتعرفنهم بسيماهم**﴾ أى بعلامتهم الخاصة بهم التى يتميزون بها ، قال الزجاج : المعنى : لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة ، وهى السيما فلعرفتهم بتلك العلامة ، والفاء لترتيب المعرفة على

الإراءة ، وما بعدها معطوف على جواب « لو » وكررت فى المعطوف للتأكيد ، وأما اللام فى قوله : ﴿ **ولتعرفنهم فى لحن القول** ﴾ فهى جواب قسم محذوف . قال المفسرون : لحن القول : فحواه ومقصده ومغزاه وما يعرّضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين ، وكان بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلا عرفه ، قال أبو زيد : لحنت له اللحن : إذا قلت له قولا يفقهه عنك ويخفى على غيره ، ومنه قول الشاعر :

منطق صائب وتلحن أحيانا وخير الكلام ما كان لحنا

أى أحسنه ما كان تعريضا يفهمه المخاطب ولا يفهمه غيره لفطنته وذكائه ، وأصل اللحن : إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض ﴿ **والله يعلم أعمالكم** ﴾ لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها ، وفيه وعيد شديد ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين** ﴾ أى لنعاملنكم معاملة المختبر ، وذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد وصبر على دينه ومشاقة ما كلف به ، قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بالنون ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالتحتية فيها كلها ، ومعنى ﴿ **ونبلو أخباركم** ﴾ : نظهرها ونكشفها امتحانا لكم ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به ، ومن عصى ، ومن لم يمتثل ، وقرأ الجمهور: ﴿**ونبلو** ﴾ بنصب الواو عطفا على قوله : ﴿ **حتى نعلم** ﴾ وروى ورش عن يعقوب إسكانها على القطع عما قبله .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم بحقو الرحمن ، فقال : مه ، قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم، أترضى أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذلك لك » . ثم قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فهل عسيتم** ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾ »[1] . والأحاديث فى صلة الرحم كثيرة جدا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم** ﴾ قال : هم أهل النفاق . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم** ﴾ قال : أعمالهم :خبثهم ، والحسد الذى فى قلوبهم ، ثم دل الله تعالى النبى ﷺ بعد على المنافقين فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿**ولتعرفنهم فى لحن القول** ﴾ قال : ببغضهم علىّ بن أبى طالب .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ**

(١) أحمد ٢/ ٣٣٠ والبخارى فى التفسير (٤٨٣٠) والأدب (٥٩٨٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٥٤/ ١٦) والنسائى فى التفسير (٥١٧) .

لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨)﴾

قوله : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله** ﴾ المراد بهؤلاء : هم المنافقون . وقيل : أهل الكتاب . وقيل: هم المطعمون يوم بدر من المشركين ، ومعنى صدهم عن سبيل الله : منعهم للناس عن الإسلام واتباع الرسول ﷺ . ومعنى ﴿**شاقوا الرسول** ﴾ : عادوه وخالفوه ﴿**من بعد ما تبين لهم الهدى** ﴾ أى علموا أنه ﷺ نبىّ من عند الله بما شاهدوا من المعجزات الواضحة والحجج القاطعة ﴿ **لن يضروا الله شيئا** ﴾ بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر وما ضروا إلا أنفسهم ﴿ **وسيحبط أعمالهم** ﴾ أى يبطلها ، والمراد بهذه الأعمال : ماصورته صورة أعمال الخير كإطعام الطعام وصلة الأرحام وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير وإن كانت باطلة من الأصل ؛ لأن الكفر مانع . وقيل : المراد بالأعمال :المكائد التى نصبوها لإبطال دين الله والغوائل التى كانوا يبغونها برسول الله ﷺ . ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ فيما أمرتم به من الشرائع المذكورة فى كتاب الله وسنة رسوله، ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالها بالإصرارعلى الكفر فقال : ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ قال الحسن : أى لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصى ، وقال الزهرى : بالكبائر ، وقال الكلبى وابن جريج : بالرياء والسمعة ، وقال مقاتل: بالمنّ، والظاهر النهى عن كل سبب من الأسباب التى توصل إلى بطلان الأعمال كائنا ماكان من غير تخصيص بنوع معين .

ثم بين سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر والصدّ عن سبيل الله فقال : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم** ﴾ فقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ؛ لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حيا ، وظاهر الآية العموم وإن كان السبب خاصا . ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن والضعف فقال : ﴿ **فلا تهنوا**﴾ أى تضعفوا عن القتال ، والوهن : الضعف ﴿ **وتدعوا إلى السلم** ﴾ أى **ولا** تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء منكم ، فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف . قال الزجاج : منع الله

المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح وأمرهم بحربهم حتى يسلموا . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى :« وتدعوا » بتشديد الدال من ادّعى القوم وتداعوا . قال قتادة: معنى الآية : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها . واختلف أهل العلم فى هذه الآية : هل هى محكمة أو منسوخة ؟ فقيل: إنها محكمة، وإنها ناسخة لقوله: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ [الأنفال: ٦١] وقيل: منسوخة بهذه الآية، ولا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ، فإن الله سبحانه نهى المسلمين فى هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداء، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون ، فالآيتان محكمتان ، ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص، وجملة: ﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها من النهى ، أى وأنتم الغالبون بالسيف والحجة . قال الكلبى ، أى آخر الأمر لكم وإن غلبوكم فى بعض الأوقات، وكذا جملة قوله: ﴿ **والله معكم** ﴾ فى محل نصب على الحال، أى معكم بالنصر والمعونة عليهم ﴿**ولن يتركم أعمالكم** ﴾ أى **لن** ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم، يقال: وتره يتره وترا: إذا نقصه حقه. وأصله من وترت الرجل: إذا قتلت له قريباً أو نهبت له مالا، ويقال: فلان مأتور: إذا قتل له قتيل ولم يؤخذ بدمه. قال الجوهرى: أى لن ينقصكم فى أعمالكم ، كما تقول: دخلت البيت، وأنت تريد فى البيت: قال الفراء: هو مشتق من الوتر وهو الدخل. وقيل: مشتق من الوتر وهو الفرد، فكأن المعنى: ولن يفردكم بغير ثواب.

﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو** ﴾ أى باطل وغرور لا أصل لشىء منها ولا ثبات له ولا اعتداد به ﴿ **وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم** ﴾ أى إن تؤمنوا بالله وتتقوا الكفر والمعاصى يؤتكم جزاء ذلك فى الآخرة ، والأجر : الثواب على الطاعة ﴿ **ولا يسألكم أموالكم** ﴾ أى لا يأمركم بإخراجها جميعا فى الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل أمركم بإخراج القليل منها وهو الزكاة . وقيل : المعنى : لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه أملك لها ، وهو المنعم عليكم بإعطائها . وقيل : لا يسألكم أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة كما فى قوله: ﴿وما[1] أسألكم عليه من أجر﴾ [الشعراء :١٠٩] والأول أولى .﴿ **إن يسألكموها**﴾ أى أموالكم كلها ﴿ **فيحفكم** ﴾ قال المفسرون : يجهدكم ويلحف عليكم بمسألة جميعها ، يقال : أحفى بالمسألة وألحف وألح بمعنى واحد ، والمحفى :المستقصى فى السؤال ، والإحفاء:الاستقصاء فى الكلام ، ومنه إحفاء الشارب ، أى استئصاله، وجواب الشرط قوله : ﴿ **تبخلوا** ﴾ أى إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها وتمتنعوا من الامتثال ﴿ **ويخرج أضغانكم** ﴾ معطوف على جواب الشرط ، ولهذا قرأ الجمهور : ﴿ **يخرج** ﴾ بالجزم ، وروى عن يعقوب الحضرمى أنه قرأ بالنون ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وحميد بالفوقية المفتوحة مع ضم الراء، وعلى قراءة الجمهور فالفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه ، أو إلى

(١) فى المطبوعة : « ما أسألكم » وهو خطأ والصحيح : ما أثبتناه .

البخل المدلول عليه بتبخلوا . والأضغان : الأحقاد ، والمعنى : أنها تظهر عند ذلك . قال قتادة: قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان .

﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله** ﴾ أى ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا فى الجهاد وفى طريق الخير ﴿ **فمنكم من يبخل** ﴾ بما يطلب منه ويدعى إليه من الإنفاق فى سبيل الله ، وإذا كان منكم من يبخل باليسير من المال ، فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال ؟ ثم بين سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس فقال: ﴿ **ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه** ﴾ أى يمنعها الأجر والثواب ببخله ، وبخل يتعدى بعلى تارة وبعن أخرى . وقيل : إن أصله أن يتعدى بعلى ولا تتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى الإمساك ﴿ **والله الغنى** ﴾ المطلق المتنزه عن الحاجة إلى أموالكم ﴿ **وأنتم الفقراء** ﴾ إلى الله وإلى ما عنده من الخير والرحمة ، وجملة: ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم** ﴾ معطوفة على الشرطية المتقدمة وهى : ﴿ **وإن تؤمنوا**﴾ والمعنى : وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى يستبدل قوما آخرين يكونون مكانكم ، هم أطوع لله منكم ﴿ **ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ فى التولى عن الإيمان والتقوى . قال عكرمة : هم فارس والروم. وقال الحسن : هم العجم . وقال شريح بن عبيد : هم أهل اليمن . وقيل : الأنصار . وقيل : الملائكة . وقيل : التابعون . وقال مجاهد : هم من شاء الله من سائر الناس . قال ابن جرير : والمعنى : ﴿ **ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله .

وقد أخرج عبد بن حميد ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت : ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . ولفظ عبد بن حميد : فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم . وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبى ﷺ نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا : قد هلك ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء : ٤٨] فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك، وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها شيئا رجوناه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يتركم** ﴾ قال : يظلمكم . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه [عن أبى هريرة] [1] قال : لما نزلت: ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم**﴾ . قالوا : من هؤلاء ؟ وسلمان إلى جانب النبى

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ،وقد أثبتناه من الدر المنثور ٦/ ٦٧ ومن ابن جرير .

ﷺ ، فقال : هم الفرس : هذا وقومه . وفى إسناده مسلم بن خالد الزنجى وقد تفرّد به ، وفيه مقال معروف [١] . وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم** ﴾ فقالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال : «هذا وقومه ، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس» [٢] . وفى إسناده أيضا مسلم بن خالد الزنجى . وأخرج ابن مردويه من حديث جابر نحوه .

---

(١) ابن جرير ٢٦/ ٤٢ .

(٢) الترمذى فى التفسير فى روايتين : الأولى : (٣٢٦٠) وقال : « غريب فى إسناده مقال » والثانية : (٣٢٦١) وقال : « وعبد الله بن جعفر بن نجيح هو والد على بن المدينى » وابن جرير٢٦/ ٤٢ ، وابن كثير ٦/ ٣٢٥ وقال : « تفرد به مسلم بن خالد الزنجى ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم » . وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٦٧ : « رواه أحمد وفيه شهر، وثقه أحمد وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح » وذكر روايتين : إحداهما : عن قيس بن سعد وقال عنها : « رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى ورجالهم رجال الصحيح » ، والثانية : عن ابن مسعود ، وقال عنه : « رواه الطبرانى وفيه محمد بن الحجاج اللخمى ، وهو كذاب » والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٣٣٤ .